رُخَامُ الكَعبةِ

القصةُ التي سَأُخبرُكم بِهَا يَا أبنائي حَدثتْ مُنذ وقتٍ طويلٍ ، لكني لازلتُ أذكرُ تاريخَها بدقةٍ. حسبَ التقويمِ الهجري كانَ ذلكَ سنةَ 1427 . وَكان يُوافقُ بالتقويمِ الميلادي سنةَ 2006 . يقولونَ أن رجلاً بسيطاً مِنْ مِصرَ سافرَ لزيارةِ الكعبةِ. يقولونَ أيضاً أنه لمْ يَذهبْ مِن أجلِ العبادةِ فَقط ، بَل كانتْ لديه نيةٌ أخرى.

بعدَ صلاةِ العصرِ ، جَلسَ بالقربِ مِن الكعبةِ. انشَغلَ بمُتابعةِ العمالِ الذينَ يقُومونَ بمسحِ آثارِ المصلينَ مِن على الرُخَامِ. بعدَ فترةٍ قصيرةٍ ، اكتملتْ في ذهنِه فكرةٌ. فقامَ إلى أقربِ عاملٍ وسألَهُ عَن المكتبِ الذي يجلسُ فيه مُديره. لمْ يَفهمْ العاملُ سببَ السؤالِ ، وَظن أن الرجلَ يريدُ أنْ يشتكيه لتقصيرِه في العملِ. واستدعت كلمةُ 'مدير' في رأسِه كل ما يخص الإدارةَ مِن تقَاريرَ وخُصوماتٍ وتأنيبٍ. حاولَ أن يُخبرَ الرجلَ أنهُ إنْ كانَ فقدَ شيئاً ويريدُ أنْ يسألَ عنهُ ، فإنْ هناكَ مكتباً خاصاً للمفقودات. لكن الرجلَ أصر على أنْ يعرِفَ مكانَ المشرفِ على هؤلاءِ العمالِ.

* * *

وَفي مَكتبِ رئيسِ العمالِ ، بدأ يحكي السببَ الحقيقيَ الذي أتى به. قالَ : 'لقدْ نذرتُ للهِ إنْ حَدثَ مَا أرجُوه أنْ أقضِي كل عُمري أمسحُ رُخَامَ الكعبةِ ! وَقدْ تحققَ ذَلكَ الأمرُ الذي كنتُ أنتظرُه وَعلي الآنَ أنْ أوفيَ بالنذرِ.
لا أطلبُ منكَ مالاً أو منصباً ، كلُ ما أطلُبه هُو أنْ أعملَ في نَظافةِ الحرمِ مثلَ هؤلاءِ العُمالِ. وَأنْ تُعطِيني أجريَ مثلُهم لا أكثرَ ولا أقل.'
ابتسمَ رئيسُ العمالِ وَشيخٌ تصادفَ وجودُه في مكتبِه في ذلكَ الوقتِ. وَحاولَ رئيسُ العمالِ أنْ يوضحَ للرجلِ أنه ليستْ له صلاحياتُ تعيينِ مِنْ يشاءُ في هَذا العملِ ، وأن هُناكَ شروطاً لا تتحققُ فيه ، وأنهم أصلاً ليسُوا بحاجةٍ إلى عُمالٍ جُددٍ في هَذا الوَقتِ. ثُم اعتذرَ لهُ وَقالَ إن النذرَ الذي نذَرهُ كانَ صعباً وأنه ضَيقَ على نفسِه بهذا النذرِ الغَريبِ.

لمْ يُحاولْ الرجلُ أنْ يجادلَ ، فَقدْ كانَ الردُ نهائياً. لكنهُ لمْ يَستطعْ أنْ يمنعَ دموعَه مِن النزولِ لأنه لمْ يتمكنْ مِنْ تَحقيقِ النذرِ وَشكرَ رئيسَ العمالِ بعباراتٍ مرتبكةٍ وقامَ ليغادرَ المكتبَ. هُنا تكلمَ الشيخُ الذي كان صامتاً طِوالَ الوقتِ .

قالَ الشيخُ :'لدي فكرةٌ لا أعرفُ إنْ كانتْ ستُرضيكَ أمْ لا ، أنتَ تعرفُ أنه بمواجهةِ الحَجرِ الأسْودِ في الكَعبةِ هُناك خَطٌ مِنَ الرخامِ الأسودِ يمتدُ عَلى الأرضِ. هذا الخطُ الرخَامي سيتم ازالتُه لأنهُ يُسببُ زحاماً حيثُ يَتوقفُ الناسُ عندهُ وَيعيقونَ حركةَ الطوافِ. وسنقومُ باستبدالِه برُخَامٍ آخرٍ لونُه أبيضٌ حَتى لا يكونَ مميزاً ولا يقف الناسُ عليه. ما رأيكَ لو أخذتَ قطعةً مِن هذا الرخامِ إلى بلدِكَ وَتقومَ بمسحها كل يومٍ ، وبذلكَ تكونُ قد وفيتَ نذركَ ؟'

* * *

يَقُولونَ يَا أبنائي أنْ الرجُلَ فَرِحَ كثيراً بهذا الاقتراحِ ، وَأنه قبلَ يَدَ الشيخِ وأخذَ يدعو لهُ بكلِ خَيرٍ. وأنه أخذَ قطعةَ الرخَامِ السَوداءِ وعادَ بها إلى مِصر. بَعضُ مِنْ يَحكي القصةَ يقولُ أنهُ كانَ يمسحُها كل يومٍ فعلاً ، وآخرونَ يعتقدونَ أن قصةَ النذرِ هذه مُختلقةٌ لأن الرجلَ كانَ قد تركَ عملَه وهَجرته زوجتُه ، وكانَ يبحثُ عَن أي عملٍ حتى ولو كعاملٍ في النظافةِ. ما يعنينا هنا هو أن هَذا الصنمَ الذي نَعبدُه الآنَ في مِصر أيها السادةُ مَا هو إلا قطعةٌ مِن رُخامِ الكعَبةِ !!

هَز الحاضرونَ رؤوسَهم رَافضِينَ تَقبلَ الفِكرةِ ، وَسألَه أحدُهم إنْ كانَ يَقصدُ أن هَذهِ القطعةِ الحجريةِ المقدسةِ ليست لها أي قيمةٍ عَلى الاطلاقِ ؟ فقَال : نَعم ! وَسألَه آخرٌ هَلْ يُدركُ العُقوبةَ التي تَنتظرهُ بَعد هذا الكلامِ الخَطيرِ ؟ وَسألَه الأولُ مَرةً أُخرى إن كانت لديه أقوالٌ أخرى. لَمْ يَرُد. نَظرَ إليه الحاضِرون بشفقةٍ وَاضحةٍ ، هذا الرجلُ قَدْ انتهى أمرُه ، إنْ لَمْ يَقتلْهُ أحدُ المتعصبينَ للحجرِ المزيفِ ، فإن الجهاتِ المسئولةِ عَنْ حِمايةِ المقدساتِ ستحبِسُه مَدى الحياةِ.

الغريبُ أنُ هذا الحجرِ لا يعرفُ أحدٌ مكانَه الآنَ ، ولكنه محلَ احترامٍ مِنَ الجميعِ ! توجدُ صورُه في كل مكانٍ ، وهناكَ نماذجٌ لهُ مِن الذهبِ الخالصِ يُهديها الناسُ لبعضِهم في المناسباتِ. وليسَ مِنَ المُستبعدِ لَوْ فتشتَ في عقُولنا أنْ تجده أيضاً بلونه الأسودِ وَشكلِه غيرِ المُنتظمِ ، يَبتسمُ ساخراً مِنْ تَعلقِنا الفارغِ به كَل هذه القرون !